الى الأستاذ الدكتور محمود الحمزة ..... حفظه الله

قد تبدو قصة عالم ينظم مسائل الجبر في أبيات شعرية حكاية طريفة من تاريخ العلوم ، كما ذكرتها الدكتورة أمل الجبوري في مقالها. فنحن اعتدنا أن نضع الشعر في جهة، والرياضيات في جهة أخرى. لكن الغريب ليس أن يلتقي الشعر بالجبر، بل أن نستغرب هذا الجمع. و هذا ما لفت انتباهي ، وأثار في تساؤلات خفّضت وتيرتها عمدا بسبب عدم التخصص .... لكنك أثرتها بهذه المقالة.

كان الشعر في الحضارة الإسلامية وسيلة لحفظ المعرفة وتعليمها، وتكشف أرجوزة ابن الياسمين في الجبر عن زمن لم تكن فيه العلوم جزرًا منفصلة، بل أجزاء من مشروع واحد لفهم الإنسان والكون.

وهذه الفكرة لا ينبغي أن تبقى مجرد تأمل في الماضي، بل تستحق أن توضع تحت المجهر، وأن تصل إلى القائمين على التعليم وصناعة سياساته في دولنا.

لقد جرى تقسيم التعليم إلى مواد ووحدات وتخصصات منفصلة، يتلقى الطالب كل واحد منها وكأنه عالم قائم بذاته. وقد ساعد هذا التقسيم، بلا شك، على تنظيم المناهج والاختبارات وإعداد المعلمين، لكنه أسهم أيضًا في تفكيك الصورة الكلية للمعرفة.

فالطالب يدرس الرياضيات واللغة والعلوم والتاريخ، ويجمع معلومات كثيرة، لكنه قد لا يتعلم كيف ترتبط هذه المعارف، أو كيف تتكامل في فهم مسألة واحدة.

إن جمع العناصر لا ينتج، بالضرورة، الكل الأكبر الذي تنتمي إليه. فالبيت ليس كومة من الحجارة، والجسد ليس مجموعة أعضاء متجاورة، والمعرفة ليست حاصل جمع مقررات منفصلة. إنما تتكون الصورة الكبرى من العلاقات بين الأجزاء، ومن النظام والغاية اللذين يجمعانها.

المشكلة، إذن، ليست في تقسيم المعرفة من أجل دراستها، بل في أن نقسمها ثم ننسى إعادة تركيبها.

ولا يعني ذلك الدعوة إلى إلغاء التخصصات. فقد أصبح التخصص ضرورة بسبب اتساع العلوم وتعقيدها، وكان وراء كثير من المنجزات الحديثة. لكن هناك فرقًا بين التخصص بوصفه تعمقًا، والتخصص بوصفه عزلة.

وقد أصبحت المشكلات المعاصرة نفسها تفرض تداخل العلوم. ويقدم الذكاء الاصطناعي مثالًا واضحًا على ذلك. فلا يمكن التعامل معه بوصفه تقنية مستقلة عن المجالات التي يدخل إليها.

فالذكاء الاصطناعي في الطب يحتاج إلى المعرفة الطبية، لكنه يحتاج أيضًا إلى الأخلاق والقانون وحماية الخصوصية. وفي التعليم يحتاج إلى فهم التعلم والنفس والثقافة. وفي الإعلام يرتبط بالحقيقة والتضليل والمسؤولية. وفي الاقتصاد يتصل بسوق العمل والعدالة وآثار الأتمتة. وفوق هذا وقبله هو أن تكون مركزيته الإنسان لا المادة.

إن بناء التقنية مهمة هندسية، لكن تقرير موقعها في حياة الإنسان مهمة أخلاقية واجتماعية وقانونية أيضًا.

لذلك أصبح انسياب بعض التخصصات في بعض، في مراحل معينة من التعليم والبحث والتطبيق، أمرًا لازمًا، لا ترفًا فكريًا. ولا يعني ذلك إذابة التخصصات، بل فتح مسارات للتفاعل بينها.

والتحدي أمام التعليم ليس أن نضيف مادة جديدة كلما ظهر علم جديد، بل أن نعيد بناء الصلات بين المواد، وأن نساعد الطالب على رؤية القضية الواحدة من زوايا متعددة.

ومن هنا تظهر الحاجة إلى مراجعة بناء المناهج، وإعداد المعلمين، وتنظيم العلاقة بين الأقسام والكليات، وتطوير مشروعات تعليمية وبحثية عابرة للتخصصات. وأن تكون هناك مبادرات لمناقشة الفكرة .

فالسؤال لم يعد فقط: ماذا يعرف الطالب؟ بل أيضًا: كيف يربط بين ما يعرفه؟ وكيف يرى المشكلة من أكثر من زاوية؟ وكيف يتعاون مع أصحاب تخصصات أخرى؟

إن ما نحتاج إليه ليس العودة إلى صورة العالِم الموسوعي القديمة، بل إعداد متخصص يرى أبعد من تخصصه، ويدرك أن معرفته جزء من بناء أكبر.

لقد أسهم تقسيم المعرفة في تعميقها، لكنه أدى أيضًا إلى تباعد أجزائها. والمطلوب اليوم ليس هدم التخصص، بل وصل ما انقطع بين التخصصات.

فالمعرفة شجرة كثيرة الفروع، ولا يضرها تنوع أغصانها، لكن الخطر يبدأ حين ينسى كل غصن أنه ينتمي إلى شجرة واحدة